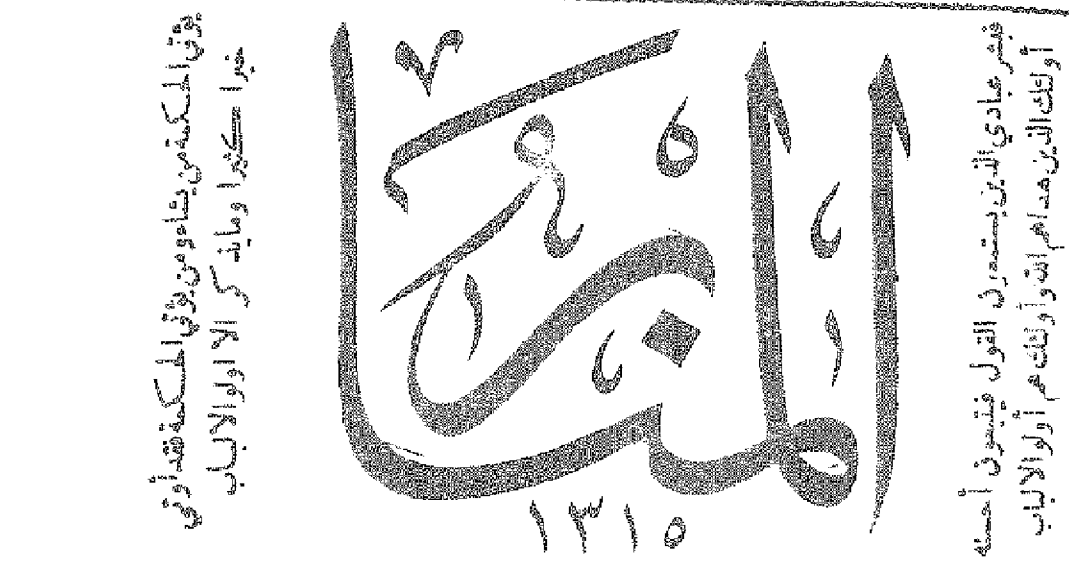

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق)

(مصر - ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ - ١٩ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥)

مصاب الاسلام بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبير النفوس وطهارة الارواح وعلو الهمم مما يحول دون الموت لما مات أبدا ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم «إنا لله وانا إليه راجعون»

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع، والحكمة البالغة، والحجة الناطقة، والمعارف الكونية والالهية، والعلوم الكسبية واللدنية، مع البيان الساحر، والأدب الباهر، والبلاغة التي تختلك العقول والقلوب، والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاخلاق القدسية، والشمائل المحمدية، والصدق في القول والفعل، والاخلاص في السر والجهر، والوفاء في القرب والبعد، والسخاء في العسر واليسر، والعفة في الشباب والكهولة، والحلم عند الغيظ والمغاضبة، والعفو مع القدرة على المؤاخذة، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين، والشهامة والترفع على المنافقين والمستكبرين، واللين للحق وأهله، والشدة على الباطل وجنده، والشجاعة التي تهابها الأمراء والعظماء، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاعمال النافعة، والمشروعات الرافعة، والمساعي المجيدة، والوسائل المفيدة، والاجتهاد في ترقية الأمة، والدفاع عن الملة، والدعوة إلى التوحيد والتأليف، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب، والتربية الصحيحة للمريدين، والجمع بين علوم الدنيا والدين، ومواساة البائسين والمعوزين، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الآمال البعيدة، والمقاصد الحميدة،

التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير ، الذي انطوى فيه العالم الكبير ، تلك الآمال التي تتضاءل دونها هم الملوك والأمراء ، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والأغنياء ، الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون ، وعن الثقة بهم محجوبون ، وعن سنته في خلقه غافلون ،

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس ، من جميع الطوائف والاجناس ، فعلم علماء الدين ، أنهم فقدوا ركنهم الركين ، الذي يحل عنهم ربق الشبهات ، وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلماء الدنيا ، أنهم خسروا ركنهم الاقوى ، الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين ، وتكفير الجامدين ، ويثبت ان الاسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين ، وشعر طلاب الاصلاح بأنهم فقدوا إمامهم العظيم ، الذي كملت فيه صفات الزعيم ، وأحس الفقراء والمساكين ، بأنهم رزءوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين ، ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة ، شدة وقع هذه الطامة ، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب ، والعمل النافع ، مربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف الاسلامية ، المضطلع باصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية ، الموفق بين الحكومة والرعية ، واعترف أهل الملل بأن مصابه مصاب الانسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية ،

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء ويبحث عن مساكن القواعد من النساء ، ليواسيهم بالبر ، من وراء الستر ، وقال لي ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه ، وانني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه ، ولكنه غاب

عن الوجود ، قبل ان يقضي لبانته من البر والجود ،

مرض هذا المصلح المعظم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرّض فيها كعبة العائدين من العلماء والامراء والوزراء والادباء والفضلاء والفقراء والأغنياء وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد ، بالنيابة عن العاجز والبعيد ، سائلين عن صحته ، أو مهنئين بما يقال عن راحته ، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من أمته يعرفون لخادمها خدمته ، ويشكرون للعامل لها عمله ، ويقول لئن شفيت لاجهدن النفس في خدمتهم اجمعين ، حتى أكون حرضا أو أكون من الهالكين ،

مرض الاستاذ الامام ، فلم يعقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام ، واحتضر الاستاذ الامام ، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام ، ومات الاستاذ الامام ، وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام ،

نقول مات الاستاذ الامام فنبتدىء القول ونعيده نتهم الحس ، ونكابر النفس ، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام ، وأضغاث أحلام ، وماهو الا الحق اليقين ، ومصير الاولين والآخرين « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء فلا تفتنا بعده ، ولاتحرمنا أجره ، واغفر اللهم لنا وله ،

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، ومآثره وعوارفه ، فقد ربى أرواحا ، واصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، وترك علماء وأدباء ، وأمات سننا سيئة له أجر إماتتها ، وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها ، وعلمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الاسلام ، مع توخي تقم

الناس أجمعين ، والاخلاص لله رب العالمين ،

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر وعلمنا كيف نعزى عنه حتى في مرض موته ، فقد كان هجيراه في تلك الكربات والسكرات ، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات . (الله أكبر) فلئن كان بفضل الله كبيرا فينا فالله أكبر ، ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا فالله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

لبي دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب وذرفت العيون واسترجعت الألسنة وحوقلت وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا متفقين على ان المصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من القريب والغريب ، والبغيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشيد والغوي ، والعالم والجاهل ، والمفضول والفاضل ، إلا كلمة « خسارة لا تعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيرا » أو قول الشاعر

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

أو قول الآخر

ولكن الرزية فقد حر ... يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته في الاسكندرية ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت وشاركتها الأمة وزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق

مثله لغيره حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق أحد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير وقد صلي عليه في الجامع الأزهر ودفن في قرافة المجاورين تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه

ولما كان المنار هو الداعي الى الانتفاع بهذا الامام المصلح في حياته ، فجدير به ان يرشد الى الاستفادة بسيرته بعد مماته ، فلا نطيل في الرثاء والتأبين وان كان بالحق ، ولكننا نقص على القراء ملخص سيرته مع التزام الصدق ، ليظهر لهم كيف تعلم وتربى حتى صار إماما حكيما ، وماذا عمل حتى صار مصلحا عظيما ، وسنضم له تاريخا مطولا نفصل فيه ما أجملناه ونشرح فيه ما لخصناه ، ونودعه كثيرا من رسائله ومكاتباته ، وخطبه ومقالاته ، وما كتب به اليه بعض العلماء والعظماء ، وما قاله فيه نوابغ الكتاب والشعراء ، وما ابتنته به الجرائد ، وما رثي به من غرر القصائد ، ونسأل الله تعالى ان يحسن عزاءنا وعزاء الامة فيه ، ويوفقنا في مصابنا لما يحبه سبحانه ويرضيه ،

ملخص سيرة الاستاذ الامام

(اسمه ونسبه ومولده)

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله من مديرية البحيرة في القطر المصري . وبيت خير الله تركماني الأصل كما اخبرنا الفقيد رحمه الله تعالى ولا أذكر عنه شيئا من تاريخ قدوم عشيرتهم إلى القطر المصري الا أنهم كانوا يقيمون في انحيام وان علي باشا مبارك أخبره ان عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهير ذكر في الرحلة الكبرى انه جاء (محلة نصر) ونزل ضيفا في بيت التركماني . وأمه من عشيرة كبيرة في مديرية الغربية تعرف بعائلة عثمان وتنسب

إلى بني عدي قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب ويقال إنها من ذريته. وكان والده شهما شجاعا وقورا سخي النفس وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقا. وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثة ومكتسبة بالمعاشرة والقدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين. وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا» رواه البخاري ومسلم

ولد قدس الله تعالى روحه في أواخر سنة خمس وستين أو ست وستين ومئتين وألف من الهجرة الشريفة (روايتان من كتابته) في قرية من قرى مديرية الغربية كان والده هاجر اليها هو وأخوه بهنس فرارا من ظلم حكام مديرية البحيرة في اواخر حكم محمد علي باشا الكبير وكان له قرابة في تلك القرية وفي أثناء إقامته فيها كان يتردد إلى بعض القرى القريبة فيها ويتعارف هو وأهلها فأدى ذلك التعارف إلى المصاهرة اذ تزوج بوالدة الفقيد وهي من قرية تسمى (حصة شبشير) قريبة من مدينة طنطا واقام معها في قرية تسمى (شنتر) الى أواخر مدة عباس باشا الأول والي مصر ثم ألجأته الحوادث بعد ذلك الى الرجوع إلى بلده وهي قرية تسمى (محلة نصر) في البحيرة وفيها نشأ وترعرع

تعليمه وتربيته

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد

كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأدبه مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحفظ جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين ادركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرؤا القرآن عند هذا الحافظ فلما منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجوّد القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الآجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصفا لأفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند اخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن اعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي يومئذ طريقته في الازهر وهو الآن الذي يجده خمسة وتسعون في المئة من

لا ينادمهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم – سبيل إلقاء المعلم مايعرفه أو مالا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم غير ان الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال، وهم في أحلام الاطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

وبعد ان تزوجت باربعين يوما جاءني والدي ضحوة نهار وألزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرسا أحضر فركبته وأصحبني والدي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (إيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا ٠ كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء، تحصب الوجه بشبه الرمضاء، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولابد من التعريج على قرية ننتظر فيها ان يخف الحر، فأبى علي ذلك فتركته واجريت الفرس هاربا من مشاهدته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة ادرين) – بلدة غالب سكانها من خؤولة ابي – وقد فرح بي شبان القرية (*) لانني كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا

(*) في العبارة ايجاز بديع بالحذف اذ لم يذكر انه وصل الى القرية ولقي شبانها لجه طوى ذلك لدلالة مابعده عليه ٠ وقد اقتدى رحمه الله في هذا بأسلوب الكتاب العزيز

أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى العصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي »

« ذلك ان أحد اخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئا من العلم واخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الأرض وكسب الرزق بالزراعة

«وإن هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ماقرأت بعبارة واضحة تغالب إعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه

فقرأت وفسرت ثم تركته إلى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أسأل فيها فقال لي إني في حاجة الى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم

«كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

«لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار ابغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفكاهة وزهو، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور اولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن ارى واحدا منهم بل افر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب

في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت أو ليس كل هؤلاء الناس مسلمين؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب. هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي

من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأنا مسلمون ناجون ، وإن كنا في غمرة ساهين، سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لا ورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً قال أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل وإذا خلوت فاذكر الله على طريقة بينها. وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، (١) واتسع لي ما كان ضيقاً ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهالي (كنيسة اورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني

---

(١) سنذكر هنا ثم في تاريخه المطول مدى ما قاله في تأثير التصوف في نفسه وما لم يقله ونبين ما كان له من المنفعة والضرر الذي تلافاه السيد جمال الدين في تربيته قتيد نا الثانية

ان والدتي ذهبت الى طنطا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي انني لا أزال في الكتيبة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على انني وجدت في معهدي مطلبي ومطلبي لما اقتنع

«ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت مائت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن إتمام شرح الشيخ خالد على الآجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرسه وجلست في الدرسين فوجدت نفسي افهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله. وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنلقاه. وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه ان يكون من أولئك الذين يسمونهم بالجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه: ما أحلى حلوى مصر البيضاء: فقلت له وأين الحلوى التي معك؟ فقال سبحان الله من جد وجد. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

«وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة. وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان الى منتصف شوال - وكنت عند وصولي الى البلد أجد خالي والدي

الشيخ درويش قد سبقني اليه فكان يستمر معي بدارسي القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئا من مبادىء الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب واخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

«وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ مشايخ الازهر والجمهور من طلبته يقولون عليه وعلينا الاقاويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل واعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس : »

هذا ما كتبه الفقيد عن مبدإ تربيته وتعلمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني قبل بشيء من ذلك ومنه أنه لم يكن

يواظب على حضور دروس من لا يفهم أو لا يستفيد منهم وانه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وانه بعد المواظبة في الازهر ثلاث سنين على الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى إعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الازهر بعلم المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تتشوف دائما الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الازهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو اشبه بالحزر فيما يفهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتها، واخبرني رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدوم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال له انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فسر بذلك واخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فألفياه يتغدى فدعاهما الى الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجبا وشغفه حبا لان التصوف والتفسير هما قرة عينه أو كما قال مفتاح سعادته. وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق، والهداية والاشارات وحكمة العين

وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجغميني في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسيت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في داره وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلازمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقيه اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقى اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقدارا معينا من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاثة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي إما أن يضر وإما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهيه وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غذاء تاما . وقد قال بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمنا طويلا . ولقد كانت مجالس استاذنا الفقيد كمجالس استاذه (رحمهما الله) تفيض علما وحكمة وأدبا ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان

مخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة على مريديها وغير مريديها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا وهكذا الكتابة الخ ماقاله وسنذكره في محله من تاريخه ان شاء الله تعالى

تدريسه ودعوته الى اصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم ايساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر فكثر سواد المجتمعين عليه وكان يدعوهم الى مطالعة مالم يتعودوا من الفنون والكتب ويفتح لهم أبواب المذاكرة والمناقشة ليلا فكانوا يغتالون الليل ولا يشعرون بطوله وفتن الاذكياء بحسن بيانه ودقة فهمه وحسده أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش فكان ما كان من حادثته معه اذ ذهب ابن للشيخ عليش مع طالب آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية وقد رجح في درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية وكان الشيخ عليش رحمه الله أذنا يصدق بكل ما سمع وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتساهلون لقراءته فارسل الى الفقيد فجاءه وهو

يقرأ الدرس في المسجد الحسيني فقال الشيخ عليش بلغني انك تقرأ شرح العقائد النسفية درسا قال نعم : قال الشيخ عليش وبلغني انك رجعت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية قال اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا أقلد المعتزلي إذا أترك تقليد الجميع وآخذت بالدليل قال الشيخ عليش اخبرني الثقة بذلك قال هلم الثقة الذي يشهد بذلك فليميز أمامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت : قال الشيخ عليش أو مثلك يفهم شرح العقائد قال الكتاب حاضر وأنا حاضر فعلي ان شئت : فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المواجهة من طالب للشيخ عليش المهيب وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته وأخذ عمامته عن رأسه ولفط الحاضرون فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه فقال أناس ان الشيخ عليشا ضربه وقال آخرون انه منعه من الدرس وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين والصواب ان هذا كل ما حصل وان الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا ويقال اذا جاء الشيخ بمكازه فله هذه العصا وكان من الشجاعة على ما يعهد عارفوه كما سنبين ذلك في الكلام على أخلاقه . أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحمهما الله تعالى وسنعقد لذلك فصلا خاصا في تاريخ الفقيد نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن وأنه من مناقب حكيمينا قدس الله روحهما وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقلدهم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه

وسموا في ازالته

نعم ان فلك الغرض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا ننكر ان تأثيره السيء وقع على الأمة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين الذين لم يحترم الناس لاسيما عقلاء الامة الاسلامية في هذا العصر أحداً من أهل الشرق كاحترامهم لهما فذلك انه كان عقبة في سبيل إصلاحهما واستفادة الأمة منهما وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما وبذلهما جهد المستطاع في خدمة امتهما وملتهما. وقد كاد يترتب على ذلك حرمان نفيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الازهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه. كتب الاستاذ الامام رحمه الله عن امتحانه ما نصه:

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية » الخ

وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون، طفقوا يناقشون ويراجعون، وينتقلون به ويستطردون، حتى صار الامتحان مناظرة، تولاها المشايخ

والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم ير احدا امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ واظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يمرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه ليوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب ان يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى وما كانوا ضائرين .

طلبه العلم بعد التدريس والدخول في الاعمال

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يبدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه همتهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد : فكان يقول الى آخر حياته انني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الازهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير . سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتاشه من الاخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سماء عرفان الحقيقة ،

والافصاح عنها بالعبارة الرشيقة ، بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده على الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الاخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الايام . وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة ، وفي سفره الاخير إلى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتبا فيه وان الانكليز نقلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل شأن في تاريخ العرب والاسلام .

وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته عن تعلمه اللغة الفرنسية ما نصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عند ما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتدأ في أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبا وعند ما سافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئا من الفرنساوية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين وبرفاق من العرب واشتغالي

بتحرير تلك الجريدة كان لا يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب على ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف من أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل فبحثت عن معلم فوجدت أستاذا لا بأس به فدعوته فجاءني حاملا كتاب نحو في يده (كراسير) فسألته ما هذا فقال كتاب نحو فقلت له لا وقت عندي لان ابتدىء وانما عندي زمن لان أنتهي ثم ناولته قصة من تأليف الكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في اثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام

« سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت انه لا يمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن

به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم» اه

الكلام في تربيته خاصة

هذا ما يقال في طلبه للعلم وأما تربيته فقد علم مما مر شيء منها وهو أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له ولم يمن في صباه الا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الالعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والامراء في أوربا . بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جملته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا لضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو

كنت ملكا لطلكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا. وقال ما معناه مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل. وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه، ورقى به الى ما هو خير منه، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جاراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المشاهد، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز عن حلها، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها. وسنذكر في التاريخ الكبير الذي نضعه لفقيدنا شيئا مما كتبه على طريقة الصوفية. وأقول هنا لو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حداثة الشيخ عليش شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لهاجوا على الشيخ عليش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وثق اليه من فساق المجاورين ولما خاضوا في فقيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر والشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل فقيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين. وقبل ان ننتقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للارشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فهذه السبيل التي سلكها به السيد جمال — سبيل الإصلاح العلمي والسياسي. ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكمل سلوكه فصار بأمن من المباشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لارشادهم وقد كتب رحمه الله في ذلك ما نصه:

« قلت انني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة وبلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى - قال لي عند مارجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا لقيتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ماحثثتك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه الي الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وانطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الالفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى » اه أقول يظهر انه أحس بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الإلهام والشعور ، ماهو معروف مشهور ،

طور العمل والاصلاح

(تمهيد) لو سأل سائل أي الرجال أعظم في الامة وأفضل لاختلف

الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم فهذا يقول أعظمهم العالم وذلك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح فينبري رابع قائلا بل القائد الفاتح ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي الحاذق ويقول آخرون أقوالا أخرى. واذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع الأمة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

إنما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة الوالدين والاجداد، وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الإمام لكل أمر عظيما حتى كان استعداده هو الاصل في حسن تربيته وتعليمه. فقد علمت مما مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا تفهمها ولم يعرف هذا من غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكيائهم الذين استفادوا بعد الفناء فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا واذا حفظ أحدهم شيئا بالتكرار ظن انه هذا فهم وعلم لا سيما اذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته. ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ويوقن أو يرجح ان الحكم فيها كذا. ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات. وكان يقول ان حضور كتب العربية على طريقتهم قد أضر بذهنه وعقله وانه ظل يكنس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة. وأما السيد جمال الدين فانه كثيرا ما كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للأفهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها

عليها فان انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقرها أو ينقدها ويجزم بغيرها وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بالفهم مع التسليم لمؤلف الكتاب فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه، وفي نهايته لم يرض بأن يفهمه الا بعد أن يستشير فيه الدليل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده بالعلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كمالا في نفسه ويعينه على رفع شأن ملته وأمته، ولو انه تعلم في حداثته على طريقة قويمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربا وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضيع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأيناه على أن ما رأيناه يكاد يكون من الخوارق فانه لم يكن يتكلم في علم الا توهم صاحب القدح المعلى فيه حتى كأنه هو الواضع له، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهريين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تربيته فقد علمت مما تقدم آنفا انه تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه وصار الدين وجدانا له ثم انتقل من ذلك الى أخذه بالبرهان. وأهم ما اتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام فقد كان فيها نسيج وحده في أمته

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العدل والاصلاح قبل ان يصير مدرسا رسميا فبدأ بإحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك فاشتغل بها مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في إحياء لغة الامة وإصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع